أن جرّداً يافعا كانت تسري فيه الحياة فكان كله قوة وكله أملاً وكله حركة ونشاطاً، فهو لا يستطيع — وإن أراد — أن يقر في مكان ساعة ولا يعرف من دهره إلا أن يسري في مناكب الأرض سعيّاً وإن لقي في سبيل فما أرخص املوت عنده بالقياس إلى إثبات وجوده وتقرير ذاته، فإن هالك هذا الأمل العريض يَنشده مثل ذلك البدن الواهن أجابك في مثل سخريتك بأن الوجود وجوده هو، من الغفلة أن يكون وألا يكون في آن معا؛ فاضحك ما شئت فلن يَنثني الجرذ عن أن يكون في دنياه شيئاً كما أراد له بارتّه أن يكون! مه، وكان الجرذ وحيداً معناه في قاموس ألفاظها إلا النزق والطيش، فلم تدّخر وسعا في الحد من نشاط وليدها وهو قرة عينها وأملها الذي يَعيد لها الشباب بشبابه، الحنون، وتكيل له عظمات السنني نصحا بألا ينصاع لدعوة شيطانه الخبيث: ألا ترحمُ يا ابناه أمك امل كته لة؟ ما ضرُّك أن تهدأ في كمينك بني ذراعي وأمام بصري؟ لئن يكن قد أغراك بالدنيا رعدا وبرقها؛ فما ذاك يا ولدي إلا رعد خلُّب وبرق كذوب! وإن يكن قد أهاب بك صوت املجد؛ يابى عليك الأمن فينصب لك حباثل املوت باسم املُ جد والخلود! خذها كلمة أملتّها تجربة السنني: لن يغنم الحي من